

المعاني الإنسانية في شخصية الإمام عليّ (ع)



عند سماع اسم الإمام عليّ (ع)، نكبر ونسمو ونصفو، وتفتّح لنا آفاق الروح كلّها، وتعمّق فينا مواقع العقل كلّها، ونشعر بإنسانيّتنا كيف تفتح على الإنسان كلّه من خلال انفتاحها على كلّها. نتطلّع إليه وهو يعيش عقله كلّّه وحياته كلّّها مع الله، فليس فيه شيء لغير الله، وليس فيه شيء حتى لنفسه، فلقد كانت نفسه الله، وكان عقله في خدمة الحقّ، وقلبه في خدمة الخير، وحياته في خدمة الإنسان كلّّه، باعتبار أنّ الناس كلّهم عيال الله، فهو (ع) يقول عن الناس إنّهم "صنفان؛ إمّا أخ لك في الدين"، تعيش معه آفاق دينك، "وإمّا نظير لك في الخلق"، تعيش معه آفاق إنسانيّتك.

وعندما نقرأ القرآن فيما نزل في عليّ (ع)، فإنّنا نجد أنّّه يتحدّث في آيات بارزة عن علاقة عليّ (ع) مع الله سبحانه وتعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ) (البقرة/ 207). وفي الروايات، أنّ هذه الآية نزلت في عليّ (ع) عندما بات على فراش النبيّ (ص) ليلة الهجرة، وهي لم تتحدّث عن الواقعة، ولكنّها تحدّثت عن سرّ عليّ (ع) في هذه التجربة الإيمانية الفدائية، بأنّه شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله، والشراء هنا بمعنى البيع، ويمكن أن يأخذ الشراء معناه ويصحّ الإيحاء.

إذاً، سرّه (ع) هو هذا: أنّه باع نفسه ، فلم يفكّر، وهو الشاب الذي لم يتخطّ العشرين إلا بسنة أو سنتين، في نفسه وهو يبیت على فراش النبيّ (ص) ليغطّي انسحابه، وكانت هناك عشرة سيوف مسلطة فوق رأسه، وهذا هو الذي يفسّر حياة عليّ (ع) كلّها، فعندما حمل سيفه في سبيل الله، لم يحمل في نفسه عقدة أن يقتل الناس، فليست بطولته في هذا – وإن كانت في ميدان الحرب لا تضاهى – بل كانت بطولته الحقيقية هي البطولة الروحية، وهي أن يهدي الناس إلى سبيل الرشاد، وأن يتخذ الحرب وسيلةً من وسائل الضغط على الناس الذين عاشوا تحت تأثيرات معقّدة أبعدهم عن الله ليعودوا إلى الله، ولقد قالها في صفّين: "فوالله ما دفعت الحرب يوماً إلا وأنا أطمع أن تلحق بي طائفة، فتهتدي بي وتعشو إلى صوئي، وذلك أحبّ إليّ من أن أقاتلها على ضلالها، وإن كانت تبوء بآثامها". وكانت بطولته الروحية هي أنّه كان يتحرّك من أجل أن يخترق جسد الكافر بعقله، قبل أن يفكّر في أن يخترقه بسيفه.

وعندما نتذكّر عليّاً، نتذكّر الرحب في عقله، وكانت رحابته تدّسع وتدّسع وتضيق وتضيق، حتى قال: "لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً"، فلقد استطاع أن يندمج في بحار المعرفة بالله، حتى استطاع أن يعرف الله بالمقدار الذي يمكن أن يصل إليه البشر، ولم يتقدّمه أحد في ذلك إلا رسول الله (ص).

من خلال كلّ ذلك، وتأسيساً عليه، لا نملك إلا أن نحبّ عليّاً (ع)، لأنّ مَنْ يفهم عليّاً أو يطلّ على آفاقه إلا ويحبّه. وذلك هو قول عليّ (ع) للناس في خلافته: "ليس أمري وأمركم واحداً، إنّني أريدكم الله، فليس لي عمل معكم من خلال ما تملكون مما يملكه الناس من امتيازات، بل عملي معكم هو عملي مع الله، لأقرّ بكم إليه، ولأرفعكم إليه، ولأجعلكم تعرفونه أكثر، وتعبدونه أكثر، وتطيعونه أكثر، وتحبّونه أكثر، وتقومون بمسؤوليتكم إزاء الله أكثر. كان (ع) وحده، ولكلّ صحابيٍّ ممن سار في الخطّ الرساليّ فضله.. كان وحده الذي عاش رسول الله (ص) كلّها، حتى إنّ طفولته استطاعت أن تختزن شباب رسول الله (ص)، ولذلك كبر عليّ (ع) في طفولته فكان شاباً، لأنّ رسول الله (ص) أعطاه شباب عقله وروحانيته وقلبه، حتى إذا بعث الله رسوله بالنبوة، كان عليّ (ع) أوّل مَنْ أسلم، لا من الصّبيان، بل من الشبان والرجال، فلقد كان جسده جسد الصبي، ولكنّ عقله كان عقلاً شاباً حياً متحرّكاً. ولقد قيل له: "هل استشرت أباك عندما أسلمت؟ فكان جوابه (ع): إنّ الله لم يستشر أبي عندما خلقتني، فهل استشير أبي إذا كنت أريد أن أسلم؟".